من أقاصيص

بوشكين

١٧٩٩ — ١٨٣٧

حليم مزي

اذا ما بدأت القصة فنحن في بيت « نارموث » الضابط في حرس القصر يجتمع وطائفة من اصدقائه في ليلة شتوية حيث يلعبون الورق ولقد ظلوا الى الخامسة صباحاً ولما يتناولوا بعد طعام العشاء. فأما الطعام فقد أعد واختلف اللاعبون الى المائدة يلتهمونه التهاماً . فاذا ما بدأت « الشمبانيا » تصبُّ في الأقداح فقد حي بينهم النقاش وطمى واتاك لتسمع احدهم يسأل « سورين » عما ربحه فيقول لهُ « انهُ خسر كالمعتاد . انهُ ليس لهُ حظ وسوف يظل حادثاً لا يضارب على انهُ كثيراً ما يخفق في لعبه » ويقول لهُ أحد الضيوف « وما رأيك في هرمان » وهو يعني احد الضباط من فرقة المهندسين « انهُ لم يلمس في حياته ورقة من ورق اللعب . بل لم يراهن . ولكنهُ تعرفه بأن يجلس اليك حتى الساعة الخامسة في الصباح ونحن نلعب »

فاجابه هرمان : إن الورق يستهلني كثيراً على انني لن احتمل ضياع حاجة في سبيل متعة غير محققة

وتحدث تومسكي قائلاً « ان هرمان رجل المانيٌ دأبه الاقتصاد . وهو لا يحملني على شيء من العجب ولكن الشخص الذي لا استطيع ان افهمهُ أو اسبر غوره هو جدتي « الكونتيس حنه فيدورفنا »

فصاح به الضيوف جميعاً « وكيف كان ذلك » ؟ فأجاب : « لستين عام مضت زارت جدتي وزوجها باريس ولقد أتاح لها جمالها الرائع ان تصبح حديث الناس . فلقد كان بعضهم يتسابقون وراء عربتها لكي يرنوا اليها وليروا « زُهرة روسيا » تلك التي افتتن بحبها « الكردينال ريشيليو » ذلك الوزير العظيم الذي أوشك من فرط هيامه بها أن ينتحر . وكانت جدتي تشهد المواند الخضراء . فخسرت مرة مبلغاً كبيراً لدوق أورليان . ولما عادت الى منزلها أخبرت جدي بذلك وطلبت اليه توفية المبلغ . وكان يخشاها ويفرق من سطوتها وبأسها وينزل منها منزلة العبد للسيد . غير انهُ لما سمع بخسارتها الفادحة تجاوز حده وأنهمها في شيء من الرقض أن ما تحمله من اوراق يثبت ان وجودها في تلك الفترة في باريس كلفهما قرابة نصف مليون في مدى

ستة اشهر وان ذلك مما يحمده ايضاً على الرغم الباب . فعند ذلك لطمته على صدام أذنه لطمة كادت تصمه . ونامت بمعزل عنه تلك الليلة . وفي الصباح عادت عليه الطلب فوجدته على الرفض مصرًّا . ولما انقطع أملها من ناحيته أخذت تفكر في الخلاص من ذلك المأزق وتذكرت رجلاً نبيلاً كانت تروى عنهُ احاديث كثيرة هو الكونت سان جرمان وكان معروفاً بحدة الذكاء وكانوا يزعمون انهُ مكتشف «اكسير الحياة» و «حجر الفلاسفة» . ومهما يكن من أمر هذه المزاعم فلقد كان رجلاً خلاب الحديث فتان المؤانسة وجيهاً في كافة المجالس والمجتمعات . وكانت جدتي تعلم انهُ ثري . فأزمعت أن تلتجىء اليهِ واستدعته فأسرع اليها وحدثته عن قسوة زوجها ووحشيته بأفظع عبارة . وطرحت عليهِ أعباء حاجتها الفادحة فأطرق الرجل ملياً ثم قال : اني قادر على انقاذك بالمال ولكن اعلم انك لن تستريحي بعد ذلك حتى تردديه اليّ فكأني سأخرجك من مأزق لأوقعك في آخر وعلى ذلك فسأطلعك على وسيلة تستردين بها خسارتك عن طريق المقامرة

قالت جدتي : ولكن يا عزيزي الكونت اني لا املك من المال شيئاً . فكيف أقبل على اللعب وانا مفلسة ؟ . فقال سان جرمان « لا حاجة بك الى المال . تفضلي عليّ بالاصغاء »

ثم افضى اليها بسر غريب يتمنى لو يعرفه اي ناد أو يشتريه بكل ما يملك من ثروة فذهل السامعون لهذا النبأ واشتدت بهم الرغبة في المعرفة وأشعل توسكي سيجاراً وشرع يدخن ثم استأنف الحديث قائلاً : « في تلك اليوم ذهبت جدتي الى قصر فرساي للمقامرة وافتتح الدوق اورليان اللعب . فاعتذرت جدتي عن توفية دينها له ألطف اعتذار ثم بدأت تلعب ضده فاختارت ثلاث ورقات فلعبتها واحدة تلو الاخرى فربحت الثلاث جميعاً وبذلك استردت جدتي ما كانت قد خسرتهُ في الليلة السابقة مشفوعاً بارباح طائلة »

قال أحد الضيوف «من عجب ان يكون لك جدة كهذه ثم يسيل ان تستخرج منها هذا السر العظيم» . «هذا ضرب من المحال . لقد كان لجدتي أربعة بنين أحدهم والدي . ما منهم الا مقامر معاصر ومع ذلك فقد أبت ان تبوح لأيهم بذلك السر على ما فيهِ لهم من نفع وجدوى . ولكن عمي الكونت ايفان اليفش حدثني الحديث الآتي : وهو ان المرحوم تشابلتسكي الذي مات فقيراً بعد أن خسر الملايين على المائدة الخضراء فقد مرة ثلثمائة الف روبل فكاد يجن حزناً وغماً فرثت له عمتي فأعطتهُ ثلاث ورقات وأمرتهُ ان يلعبها على التوالي وأخذت عليهِ عهد الله وميثاقه ان لا يبوح بالسر وان لا يعاود اللعب بعد ذلك ما عاش . فمضى تشابلتسكي الى خصمه ولاعبه فأخطر على الورقة الأولى خمسين الف روبل فربحت ثم ضاعف المبلغ على الورقة الثانية فربحت وضاعف على الثالثة فربحت وبذلك استرد فوق ما كان قد خسره : والآن ايها السادة قد ان لنا ان نتصرف فقد آذن الفجر ان يلوح والديك ان يصيح . . . » فشرب الجميع سؤر أقداحهم وتوادعوا ثم افترقوا

— ٢ —

كانت الكونتيس العجوز حماة نومسكي جالسة في غرفة التواليت امام مرآتها ومن حولها ثلاث وصائف يضمن بخدمتها . وكانت الكونتيس قد فقدت كل أثر من آثار جمالها الغابر ولكنها لم تفقد عادات شبابها المتدثر من التجمل والزينة . وكانت تجلس قرب النافذة وصيفة لها حسناء تشتغل على منسج التطريز . تلك هي « ليزا ڤيتا » التي كانت تسدد نظرها نحو النافذة من حين الى حين ثم ألقت نسيجها وأطلت من النافذة . ولم تكن الا برهة حتى ارتفع لها في اقصى الطريق ضابط فتى في زي الضباط المهندسين . فاحمر وجهها خجلاً وتناولت نسيجها واستأنفت عملها على المنسج وفي هذه اللحظة عادت الكونتيس العجوز مستكملة اللباس والزينة . وتحدثت الى ليزا ڤيتا في ان تأمر الخدم باعداد المركبة ليخرجا في نزهة : ولقد قامت الفتاة عن منسجها متناقلة الخطا كمن به ذهول ووقفت حائرة فلمحت الكونتيس هذا فقالت: « ليزا ڤيتا . ماذا بك وما خطبك؟ أبك صمم أم ذهول؟ . نادي الخدم ومُري باعداد المركبة في الحال »

انطلقت ليزا ڤيتا بسرعة وفي هذه الاثناء دخل أحد الخدم فقدم للكونتيس بضعة كتب هدية من الامير « پول الكسندروفتش » ودعت الكونتيس وصيفتها لقراءة ما بالكتاب فاذا بدأت ان تقرأ فقد شعرت الكونتيس بأن موضوع الكتاب لا يعنيها لا من سخف ومن سقط المتاع ولقد أثبت الكونتيس وصيفتها لتأخرها في ارتداء ملابسها وعابت عليها تكرارها التأخير عند خروجها

كانت الكونتيس متغيرة المزاج لم يهدأ لها بال . فما كادت « ليزا ڤيتا » تصل الى غرفتها حتى هبت الكونتيس الى جرس الغرفة تقرعه قرعاً مستمراً . فهجم ثلاث وصائف من باب وخادم من باب آخر . وصاحت الكونتيس قائلة « لقد أصبحت في قصري لا أطاع أو يسمع لي قول أو يؤبه لي . أين ليزا ڤيتا؟ ألا خبروها انني قد عيل صبري في انتظارها . . . » وهنا عادت ليزا ڤيتا تحمل معطفها وقبعتها فقالت الكونتيس . لقد طال غيابك يا ليزا ڤيتا . واراك تكثرين من امر الزينة والتجمل اكثر مما ينبغي ومن يأتي تتوين اقتناصه . . ؟ ثم ما رأيك في جوّ اليوم . . ؟ ارى انهُ يوم عاصف فقالت ليزا ڤيتا . كلاَّ يا سيدتي انهُ ليوم هادىء ساكن الريح . وقال ذلك جميع الخدم ايضاً . وقالت الكونتيس : انهُ ليوم قطرير عبوس. ألا تحسون الريح والبرد القارس. أعروا الخيل من السرج فلا سبيل الى الخروج اليوم . فتألمت الوصيفة ليزا ڤيتا لهذه الحياة المليئة بالمناقضات الأليمة

— ٣ —

قبل وقوع هذه الحوادث بأسبوع كانت ليزا ڤيتا جالسة الى نافذتها في صباح يوم جميل تطرز على منسجها فانتبهت منها الفتاة الى الطريق فوقع بصرها على فتى من فرقة الضباط

المهندسين . وكان واقفاً لا يبدي حراكاً يطيل النظر الى نافذتها . فنكست رأسها وأقبلت على عملها . وبعد خمس دقائق أطلت ثانية من النافذة فاذا الفتى الضابط لم يبرح مكانهُ ولا يزال موكلاً طرفهُ بالنافذة . ولما لم يكن من شأنها مغازلة الضباط الناظرين الى نافذتها فقد شغلت بعملها في شيء من النشاط ومضت ساعتين كاملتين من دون ان ترفع رأسها . ثم دق جرس الغداء فنهضت وتركت نسيجها . ثم خرجت منها الفتاة الى الطريق فاذا الضابط لم يغادر موقعهُ فاشتد عجبها من ذلك . وبعد الغداء عادت الى النافذة وهي تحمل شكًّا وقلقاً ولكنها لم تجد للضابط أثراً فصرفت من ذهنها شبحهُ وتناستهُ

وبينا هي تهم بالركوب مع الكونتيس بعد ذلك بيومين أبصرت الضابط نفسهُ خلف باب المركبة تتوقد عيناه السوداوان من خلال لثامه فأوجست منهُ خيفة لغير علة واضحة وأخذت تحلم من المركبة والرعب يرجف أوصالها . ولما عادت الى المنزل أسرعت الى النافذة فاذا الضابط في موقفه القديم يديم اليها النظر . فارتدت منقبضة وتملكها نوع غريب من الشعور لم تدرك لهُ معنى . ومن ثمَّ فصاعداً لم يمض يوم الا ظهر ذلك الضابط تحت النافذة في الساعة المعهودة فنشأ بين الفتاة وبينه نوع من التعارف الصامت والصحبة الخرساء . فكانت اثناء عملها على المنسج تحس ريحه وتشعر بروحه ثم ترفع رأسها لتنظر اليهِ وجعلت نظراتها تزداد على مرّ الايام وكان الفتى قد فطن الى هذا فارتاح اليه وكأنهُ يرسل من عينيه معاني الشكر والغبطة وكانت الفتاة تبصر احمرار وجهه كلما تلاقت الحاظهما . وبعد اسبوع بدأت تبتسم لهُ

ولعل هذا الحديث يفهمنا ان ذلك الفتى هو « هرمان » الذي ورد ذكره في أول هذه القصة وعُرف بأنهُ من فرقة الضباط المهندسين

— ٤ —

كان هرمان ابن رجل ألماني استوطن روسيا وتجنس بالجنسية الروسية وكان قد ورث عن أبيهِ ثروة لا بأس بها . وكان شديد الاقتصاد في النفقة يجتزىء من مرتبه ولا يمس ميراثه وكان جم الحشمة والوقار بعيد المطامح والمطامع لهُ من قوة عزيمته وحزمه اشد رادع وقامع لشهواته فكان من فرط ميله للمقامرة لم يمس ورق اللعب قط . وكانت قصة الورقات الثلاث قد أثرت في نفسه أشد تأثير وأشغلت خياله فجعل يسهر الليالي لا يفكر في غير ذلك ثم بحث عن قصر الكونتيس حتى عرف مكانهُ وأبصر الفتاة لمرة ثانية وهي تطرز على منسجها فأزمع ان يصل اليها مهما كلفه ذلك ليتخذها سلماً للوصول الى سيدتها الكونتيس لكي يعرف سر الورقات الثلاث منها طوعاً او كرهاً ثم كان من امر وقوفه ازاء النافذة ومخالسته النظرات للفتاة وتحديه اياها ما كان

تحدثنا في ان الكونتيس بعد ان امرت باعداد المركبة عادت وامرت ثانياً بفك الحبل

ولكنها ما لبثت ان امرت باعدادها ثانياً . وكذلك لم تكد ليزا ڤيتا تنزع معطفها وقبعتها حتى أُمرت بلبسهما ثانياً وخرجت مع سيدتها للنزهة ولم تكد العربة تبدأ في السير حتى لمست يد ليزا ڤيتا يد أخرى والقت فيها ورقة فأخفتها في قفازها وظلت طول النزهة لا تسمع ولا تعي ولا تفقه . وكلما القت عليها الكونتيس سؤالاً — وما كان اكثر ما تسأل — اجابتها اما بالصمت وإما بما هو ابعد من الصمت من جواب سخيف خارج عن الموضوع حتى ضجت الكونتيس وانهالت عليها سباً وشتماً

ولما عادت ليزا ڤيتا من النزهة اسرعت الى فض تلك الرقعة التي وصلتها من هرمان . فاذا بها قطعة من ملطفته وهيلده سداها الحشمة ولحمتها الادب . فطربت لهذا الطرب كله على ان سرورها كان مشوباً بنوع من القلق والاضطراب لارتباطها لاول مرة بشاب غريب بعلائق سرية خصوصية وقد كان في شدة جرأة ذلك الشاب ما اخافها وأرهبها فأخذت تنقف نفسها على طيشها وغرورها . ولم تدر ماذا تصنع أتهجر النافذة والجلوس اليها ؟ فتقطع آمال الشاب بهذا الجفاء ؟ أم ترد اليه رسالته فتنشه أم تجيبه عنها بجواب رفض وإباء ؟ وبعد طول الحيرة والتردد حررت له الرقعة الآتية : « لاشك عندي ان غرضك شريف وانك لا تود ان تؤذيني بما يحرجني أو يسيء الى سمعتي غير اني لا أحب ان يكون بدء تعارفنا بهذه الطريقة التي سلكتها »

ولما ظهر هرمان في اليوم الثاني تحت النافذة ألقت بالرقعة على الطريق . فسرعان ما التقطها وذهب بها الى محل حلوى ففض غلافها فألفى داخلها رسالته مردودة والجواب عليها وكان قد توقع ذلك فانقلب الى داره وذهنه مشغول بما كان يدبره من الدسيسة . ولقد أرسل لها فتاة حائكة بعد ثلاثة أيام برسالة منه ففضتها وهي ترجو ألا تكون من غريم يطالب بدين . ولقد أحبت ان تكرر الرسالة متجاهلة صاحبها ولما كان هرمان يطلب لقاءها فقد ازعجها وقاحة هذا الطلب وصاحت قائلة ان تلك الرسالة لم تكن لها فقالت لها الفتاة . ولماذا مزقتها إذن ؟ لقد كان ينبغي ان تردها الى صاحبها . . . فارتبكت ليزا ڤيتا امام هذه الملاحظة الدقيقة وقالت أرجوك ألا تأتيني بأية رسالة أخرى وخبري مرسلك ان هذا عار عليه . ولم يكن هرمان بالرجل الذي تصده مثل هذه الصدمة . فأصبحت ليزا ڤيتا لا يمر يوم الا أتتها منه رسالة مشحونة بآيات الوله والصبابة والاستعطاف فكانت تمر على عزيمته وصلابة ارادته وطمحات خياله الجامح الشرود الذي لا ترده شكيمة أو يثنيه عنان . أما الفتاة فقد وهنت امام هذا السيل الجارف فأذعنت واستكانت ولم تعد تقوى على رد تلك الرسائل . بل جعلت ترتاح اليها وتجد لها حلاوة في سمعها وبدأت تجيبه على رسائله وكانت ردودها تزداد على الايام اطنابا واسهابا ورقة وغزلا الى ان القت اليه من نافذتها ذات صباح بالرسالة الآتية : « في هذه الليلة ستقام حفلة راقصة في دار السفارة وستشهد الكونتيس هذه الحفلة وسأظل معها هنالك الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وسيبقى المنزل خالياً الا من

البواب وهذا دأبه الثماس . فاطرق المنزل الساعة الثانية عشر . فاذا عثر بك أحد في الساحة فاجعل حجتك السؤال عن الكونتيسة وارجع بسلام واكثر من التنظر ألا يمر بك أحد فاعمد الى غرفة الكونتيس تجد بها حاجزاً خلفهُ بابان فافتح الباب الايسر يؤدي بك الى دهليز في اقصاه سلم يفضي الى غرفتي فتنظرني بها »

وفي الساعة الثانية عشر صعد هرمان سدة الباب ودخل الساحة المشرقة بالمصابيح الوضاءة ولم يجد أثراً للحارس فرقى السلم حتى بلغ حجرة الكونتيس التي بها مضجعها . فألفى في احدى زواياه شبه محراب مزدانًا بصور القديسين وتماثيل القديسات يضيء مصباح من الذهب الابريز وحول الحجرة تمارق وأرائك عليها ستر الوسائد وقد نسلت اصباغها لتقادم العهد ورقمت عليها يد القدم سطور الوحشة والكآبة وكان على احد الجدران صورتان من صنع المصورة الباريسية المشهورة « لبرن » احداهما تمثل رجلاً ربعة بادناً أشقر يناهز الاربعين في حلة عسكرية خضراء هو « زوج الكونتيس المتوفى » والصورة الاخرى تمثل الكونتيس في صباها. وفي جوانب الغرفة تماثيل شتى من الشبه والخزف والصيني وساعات وصناديق بها حلي وزخارف ومراوح وشتى اصناف من اللعب والتحف

وقف هرمان خلف الحاجز فألفى لدى ظهره سريراً من الحديد وعلى يمينه باب المقصورة الخاصة بالكونتيس وعلى يساره الباب المؤدي الى الدهليز ففتحه فأبصر السلم المفضي الى حجرة الوصيفة ليزافيتا والكنهُ أغلقهُ ولبث مكانه . مرَّ الوقت بطيئاً وكان الكون ساكناً وظل هرمان واقفاً مستنداً الى رف الموقد الخامد ودقت الساعة الواحدة ثم نصفاً ثم اثنتين واذ ذاك سمع وقع حوافر وصرير عجلات من أقصى مسافة فاعترته رجفة شديدة وهزة عنيفة وتقدمت المركبة ثم وقفت . وسمع حركات الوصائف بالقصر غاديات رائحات في هرج ومرج . وأشعلت المصابيح وتألقت أضواؤها ودخل حجرة الكونتيس ثلاث وصائف وعلى أثرهن الكونتيس وقد احياها التعب . فهالكت على كرسي وهي أشبه بالاموات منها بالاحياء . ونظر هرمان من خلال الحاجز فأبصر ليزافيتا عن كثب وقد ولجت الباب الأيسر وصعدت في السلم المؤدي الى حجرتها. فأحسَّ نوعاً من الالم والندم على بغيائه اياها وغدره بها ولكنهُ ما لبث ان قسى قلبه وكتم صوت ضميره وعاد الى جموده

خلعت الكونتيس ثياب الزينة وارتدت جلباب النوم وجلست الى النافذة بعد ان صرفت الوصائف واطفأت المصابيح الا قنديلاً ضئيلاً كامد الشعاع . وكانت الكونتيس مصابة كالعجائز بالارق فلبثت مكانها من النافذة صفراء الوجه والبشرة كانما غمست في حوض من الكركم تحرك شفتاها وتترجح بغثيان ويسرة . وكانت عيناها الكليلتان الثقيلتان تبدان على ذهول وتدله

وكأن اهتزاز جثتها وعدة كهربائية منبعثة من أحشائها . ولكن وجهها المنكب تحرك بهتة موقف ارتعاش الشفتين وبدت أمارات الحياة في عينها . ماذا جرى ؟ لقد ظهر امامها جل غريب مجهول . . . وقال هرمان لها « لاتخافي لست بضارك . لقد جئت اسألك حاجة . » فنظرت اليه العجوز في صمت كأنها لم تفهم مقالته وظن هرمان أنها مبتلاة بالصمم فأدنى فمه من أذنها وأعاد ما قالهُ فهادت العجوز في صمتها

وقال هرمان « ان في مقدورك اسعاد حياتي وترفيه عيشي . فني استطاعتك ان تسمي لي ثلاث ورقات من ورق اللعب » . وهنا سكت هرمان اذ بدا لهُ ان العجوز بدأت تفهم كلامه وكأنها كانت تعالج سكرة من سكرات الألم أو الموت ثم تعالج نفسها على ان تهيء للجواب. فقالت لهُ « لم يكن ذلك الا من باب المزح والفكاهة »

فأجابها هرمان « كلا ان الامر جد لاهزل فيه . اذكري صاحبك تشابلتسكي الذي اقلت عثرتهُ وفرجت غمته وأعنته على استرداد خسائره الا تستطيعين تسمية هذه الورقات. » فهادت العجوز في سكوتها وهنا خر هرمان راكعاً تحت قدميها وقال « لمن تدخرين هذا السر لذريتك واحفادك وقد أغنام الفتنهُ بالثروة الطائلة والنعمة الفسيحة. رحماك أيتها الكريمة . واذا كنت تعرفين شعور الحب — حب العاشقة لعشيقها والام لرضيعها والشقيقة لشقيقها. فأني استحلفك بعواطف العاشقة والوالد والشقيقة وبكل ما هو مقدس في الحياة الا ما أجبت دعائي وقضيت حاجتي »

كان ذلك والكونتيس صامتة لا تبس فعند ذلك ثار هرمان وصاح « ثبًّا لك من عجوز شوهاء لأرغمنك على الكلام أرغاماً وأخرج سدساً من جيبه . فبدت علامات القلق على العجوز فرفعت يديها كأنها تحاول القاء القذيفة واستلقت على ظهرها وبقيت مسلوبة النطق والحركة . فصاح هرمان وقبض على يدها أجيبي اني اسألك المرة الاخيرة . أجيبي ما هي الورقات الثلاث ؟ » فلم تحر جواباً وتأمل هرمان في وجهها فاذا هي جثة لا حراك بها

. . . . . .

كانت ليزافيتا جالسة في غرفتها وقد خلعت ذواتيها الحاسرتين عن صدرها العاري وقد أرسلت الخادم ألا يعود بعد أن سألتها مراراً عما يمكنها أن تقضيه لها من حاجة وكانت تحمد الله كثيراً لان هرمان لم يحضر واستلقت على مقعد لتراجع ذكرى الحوادث الاخيرة . فلقد انقضت ثلاثة أسابيع منذ ما لمحت هرمان من النافذة ثم شرعا يتراسلان . انها لاتذكر انها حدثتهُ لساناً بلسان ولكنها عرفت اسمه من امضائه على الخطاب. وانها لتذكر المصادفة الغريبة ألا وهي ان في تلك الليلة الراقصة وتوسكي يرقص معها بعد ان تنحى عن الرقص مع البرنسيسة بولينا بدأ يذكرها بحبها لهرمان وهي تذكر هذا الحب فيقول توسكي لها « ان هرمان شخص

روسانتيكي وله وجه كتابليون ونفس كيفستوفيلس ونفسٌ ضميره يحمل وزر ثلاث جرائم . . ولماذا علت وجهك تلك الصفرة ؟ . . .

بعد فترة دخلت الاميرة بولينا وسيدتان . وتحدثت الاميرة مع ليزاڤيتا عن تومسكي ثم خرجت ورفيقتاها وتركن الفتاة تستعيد كلمات تومسكي شاردة الفكر لا يستقر لها حال أو يهدأ لها شعور . وفيما هي على هذه الحال اذا بالباب يقرع ويدخل منهُ هرمان . فتسأله في شيء من الحجب عن امره . فيجيبها انهُ كان في حجرة الكونتيس ولقد تركها وهي جثة بلاروح . . فتقول له . يا لله . ماذا تقول ؟ يخيل هرمان وقال انهُ يخشى ان يكون هو السبب . وأصغت الفتاة الى حديثه وفرائصها ترتعد وقص عليها ما كان من امره مع الكونتيس . فعرفت مرماه وتبينت هدفه ونهت ان تلك الرسائل الغرامية وان هذا الحب لم يكن مصدرها الخير والحب لذاته ولكن مصدرها الجشع وانها لم تكن الا آلة صماء في يد سارق أثيم . فذرفت دموع الندم مرة حارة وجعل هرمان ينظر اليها صامتاً وقلبه تهب الوساوس الأليمة

وقالت ليزاڤيتا . انك لوحش ضار . وبدأ الصبح يتنفس وقامت ليزاڤيتا فأرشدتهُ الى السلم السري وقد ضغط على يدها الباردة يودعها . ولما انكفأ هرمان في مساء اليوم التالي الى غرفته المطرح على مقعد بها منهوك القوى دون ان يزع ثيابهُ فاستغرق في النوم ولما أفاق من سجته كان الليل قد خيم وألقى القمر اشعته على ارجاء الغرفة . وانهُ لكذلك اذ فتح عليهِ باب الحجرة ودخلت امراة في ثوب ابيض فدنت منهُ واذا هي الكونتيس قائلة لهُ بصوت ثابت . « لقد جئتك على غير ارادة مني . ولكن امرت ان آجيء فجئت . سترع اذا لعبت الورقات الثلاث الآتية على التوالي — كل واحدة في ليلة . ثم لا تعيد الكرة والورقات هي ثلاثة وسبعة وآس . . . ولكن لا بد من ان تتزوج من ليزاڤيتا ايڤانوفنا »

لما ماتت الكونتيس كان هرمان ممن ذهبوا لتأدية العزاء في الكنيسة فوقف يتلو الصلاة ويستغفر الله فيما فعلهُ من اثم وما ارتكبهُ من جرم . واخترق الصفوف وأقبل نحو النعش ونظر الى الجثة فاذا الكونتيسة يلوح عليها انها تنظر اليهِ في شيء من السخرية . . فاستولى عليهِ ذعر فارتدّ فزعاً فوقع مغشيًّا عليهِ . اما ليزاڤيتا فخرجت من الكنيسة وهي تحمل ألماً مبرحاً مرتجفة مهمومة

— ٥ —

كانت هنالك جمعية في موسكو يرأسها شيكالنسكي وهي تضم جماعة المقامرين وفي ذات ليلة قدم هرمان في صحبة تومسكي . وبدأ تومسكي يقدم هرمان الى شيكالنسكي وانضم هرمان الى جماعة المقامرين ودارت رحى الميسر وانتهى الدور الاول وبدأ شيكالنسكي يوزع الورق . فقال هرمان لهُ أتسمح لي ان آخذ ورقة . فانحنى شيكالنسكي راضياً . وقال هرمان . « اريد

الاشتراك » . وكتب ارقاماً بالصباشير على ظهر ورقة . فقال صاحب البنك « على اي مبلغ يا سيدي معذرة فاني قصير النظر » . فقال هرمان « على سبعة واربعين الف روبل اعني كل ما ورثته عن ابي » . وعند سماع هذه الكلمة انتفض جميع المقامرين والمتفرجين ولم يصدقوا نباه ولبثوا فترة في ذهول ودهشة . وقال تومسكي في نفسه : حقاً لقد تورط هرمن في تفكيره وخولط في عقله . وقال شيكالنسكي : « هذا مبلغ باهظ فلربما ان جازف مقامر باكثر من مائتين وخمسين روبل دفعة واحدة » فقال هرمان . قد يكون قولك حقاً ولكن أيقبل الرهان على هذا المبلغ ام لا ؟ فانحنى شيكالنسكي قبولاً وقال « اسمح لي مع مزيد ثقتي بتصريح اصدقائي اني لا أقامر الا على النقد الحاضر ولكن محافظة على اللعب اطلب اليك ان تضع المبلغ على ورقتك » . فأخرج هرمان بنكنوتاً اعطاه الى شيكالنسكي وألقى هذا بيده عليه وأرفقه بورقة هرمان وشرع ينثر الورق فظهر على اليمين « تسعة » وعلى اليسار « ثلاثة » فقال هرمان ان ورقته رابحة . فأظهر الجميع عجبهم ودهشتهم وعبس وجه شيكالنسكي غير ان ابتسامته لم تفارق ثغره ودفع له مبلغ ربحه . وفي اليوم الثاني اشترك هرمان في الدور الثاني وبدأ ينثر الورق على رأس ماله وأرباح الامس فظهر على اليمين « عشرة » وعلى اليسار « سبعة » وهي الرابحة فضج المقامرون وبدأ القلق يساور شيكالنسكي وتناول هرمان ارباحه الجديدة وغادر المكان . وفي اليوم الثالث ترك الجميع اماكنهم وأحاطوا بمائدة هرمان وقد وقف ليلعب مع شيكالنسكي وهو على شدة تأثره لم يزل يفتر ثغره عن ابتسامته الطبية فتناول كل منهما رزمة من الورق وشرع شيكالنسكي يوزع ورقه ويداه ترتجفان فصاح هرمان بملء فيه « هذا هو الآس ! لقد ربح » فأجابه شيكالنسكي في شيء من الهدوء والاحترام . لا ياسيدي . . ان الذي في يدك ليس الآس ولكنه « ملكة البستوني » وقد خسرت . فانتفض هرمان ونظر الى الورقة فوجدها « ملكة البستوني . . . . ولكن من الذي غير الورقة . . . تلك لا شك قوة شيطانية . . . وأعاد النظر الى الورقة فاذا بها صورة الكونتيس وهي تبتسم له وتغمز له بعينيها في هزء وسخرية . فصاح وقد ملكه الرعب « الكونتيس العجوز » « الكونتيس العجوز » وشرع شيكالنسكي يجمع ارباحه ولبث هرمان فاقد الحركة برهة من الزمن . . . واستأنف شيكالنسكي اللعب مع المقامرين . اما هرمان فقد جن وهو الآن نزيل احدى الملاجيء الخاصة بمرضى العقول لا يعي قولاً أو يفهم أمراً ولسانه دائم الترديد « ثلاثة سبعة . ثلاثة سبعة ... ملكة البستوني . . . . . »

وزوجت ليزاڤيتا ايفانوڤنا من فتى رشيق ممن كانوا في خدمة الكونتيس وعاشت معه في كنف السعادة ورغد العيش